فى الحب أيضا

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى

أرجو ألا يتوهم أحد أن هذا حديث فى فلسفة الحب فانه لاقدرة لى على الفلسفة ، وقد فقدت ايمانى بها مذ خذلتنى وخيبت أملى وعجزت عن أن تفسر لى شيئا مما يحيرنى فى هذه الحياة . وقد قرأت كثيرا مما كتبه الذين ينسبون إلى الفلسفة وإلى البحث العلمى ، غير أنى لم أقتنع به ولم استرح إليه . ومن سوء الحظ ـ حظى أنا بالطبع كما لا أحتاج أن أنبه ـ أنه ليس لى فى هذا الباب تجربة تستحق الذكر حتى كنت أعرض مايقول الفلاسفة والعلماء على ما جربت وأرى إلى أى حد أصابوا ووفقوا . ولست اكتمكم أنى عاجز عن هذا الحب . وعسى أن أكون واهما لا عاجزا . ولكنى ما قرأت قط شعر العشاق وما قالوه فى الصبابة والوجد وفيما تضطرب به نفوسهم وتجيش به صدورهم من الخوالج والاحساسات فى القرب والبعد ، والاقبال والصد ، والمواتاة والحرمان ، ولا سمعت ممن أعرفهم وصف ما جربوا من ذلك إلا قلت لنفسى ـ حين أخلو بها ـ « اسمحى لى يانفس أن أقول إنك ـ ولا مؤاخذة ـ بليدة ، فتسألنى لماذا ؟ فأقول « لأنى لا أراك تحسين شيئا من هذا الذى أجمع على وجوب الاحساس به الشعراء والناس قاطبة . فهل أنت بليدة أم هؤلاء كلهم كذابون أو على الأقل مبالغون ؟ » ولا أحتاج أن أقول إنى لا أخرج من هذا الحوار الذى يدور بينى وبين نفسى بشىء آنس به واستريح اليه ، فانها تصر على أن الناس مبالغون وأصر أنا على منطق « قرقوش » المشهور . فقد قالوا إن ناسا كثيرين وضعوا رجلا من الأحياء في نعش وحملوه فيه كالميت ، فمر قرقوش بجنازته فصاح به الرجل مستنجدا وأكد له أنه لا يزال على قيد الحياة ، فأطرق قرقوش قليلا وفتل شعرات من لحيته ثم رفع رأسه ونظر اليه وإلى الناس وقال : « أتريد أن أصدقك وأكذب هذا الخلق كله ؟ » وكذلك أنا مع نفسى ـ لا يعقل عندى أن تكون هى وحدها على صواب وكل هذه الملايين من النفوس مخطئة أو كاذبة ، أو مبالغة .

ولا أنكر أن نفسى كانت تتحرك أحيانا فاشجعها مسرورا واستحثها فرحا يقظتها بعد طول السبات ، ولكن أقصى ما جربت حين تفتح النفس عينيها على ما حولها أن يخفق القلب خفقات تصعد به إلى حلقى من فرط شدتها ، فأفهق وتعود قهوى به إلى قريب من حذائى كأنما هذا ليس قلبا وإنما ركب لى الله سبحانه فى مكانه لعبة من لعب « اليويو » التى شاعت فى الزمان الأخير . وأحيانا أشعر بأن حولى فراغا وأحس شيئا من اللهفة وقليلا من الشوق ، ولكنه شوق هادىء ولهفة محتملة لا تثقل على النفس ولا يشق بها القلب ولا يسود من جرائها العيش . وشبيه بذلك أن يشتهى الانسان أن يرى شريطا من أشرطة السينما سمع عنه ثناء أو أن يشتاق أن يطوف حول الأرض أو يشاهد معرضا كبيرا فى بلد ناء . ولا أظن أن هذا يعد حبا بالمعنى القديم أو الحديث

وللسامع العذر إذا تساءل : « كيف إذن كنت تقول الشعر فى شبابك وتذكر فيه الحب ولواعجه وصباباته وما تزعم أنك كنت تعانيه من السهد والضنى أو تريقه من الدموع إلى آخر ذلك ، والسؤال طبيعى ولكن الجواب عنه حاضر ، ولولا عادة الصدق التى اكتسبتها فى الأيام الأخيرة لعز الجواب . والجواب يعرفه القراء فقد سقته فى فصل سابق عن الحب نشرته لى « الرسالة » وخلاصته أنى أوحيت الحب إلى نفسى

ومن الجرأة أن أزعم أن الناس كلهم كذلك ، ولكنى أقول إن نشوة الحب تطول عند الناس بفضل الايحاء المستفاد من تأثير الجماعة والعرف . ولو خلت الكتب مما نقرأه فى وصف الحب وأثره فى النفس وألف المرء أن يرى الناس يحبون حبا لا يخرج بالنفس عن الاتزان لصار الحب هادئا فاترا كالصداقة . وأحسب أن الفرق بينى وبين غيرى ليس هو أنى شاذ وهم طبيعيون . بل إنى تأثرت بايحاء الجماعة وايحاء الكتب وأنا عارف بذلك مدرك له متفطن لحقيقته ، وأن الأكثرين يتأثرون على هذا النحو تماما ولكنهم لا يدركون أن فى الأمر ايحاء ولا يفطنون للحقيقة فيه . والحياة تقوم ـ كما لا أحتاج أن أبين ـ على الايحاء ، وكل امرىء يوحى إلى كل امرىء آخر ويستوحى منه ، بل نحن نستوحى الأشياء كما تتلقى الأيحاء من الناس .

ويخيل إلى أن الحب اسم غلط ، فانه يبدو لى أن هذه العاطفة التى نسميها الحب خالية فى الحقيقة من الحب والعلاقة فيها بين الجنسين ليست علاقة مودة . وهذا كلام قد يبدو متناقضا ولكنى

أظنه صحيحا. ذلك أن الحب ضرب من الجوع ؛ ولا تقولوا إنه جوع معنوى فإن هذا يكون تحريفا، إذ ليس ثم فيما يتعلق بالانسان أو الحياة شيء معنوى . والانسان مادة وكل ما فى الحياة من المادة وإلى المادة ، فلندع هذه الخيالات ولنجتزىء بالحقائق فإن أرضها صلبة متينة لا تسوخ فيها الرجل . والمرء يجوع فيشتهى الطعام أى يطلبه ، لا لأنه يحب الطعام فى ذاته ، ولا لأن بينه وبين ما يأكل مودة ، بل ليسد الحاجة التى يشعر بها ويقضى الرغبة التى تلح به ولا يستطيع أن يهدئها بغير الأكل . وكذلك يجوع جوعا من ضرب آخر - جوعا يطلب به إرضاء الرغبة الطبيعية فى النسل إطاعة لغريزة حفظ النوع ، كما يطلب بالأكل إطاعة لغريزة المحافظة على الذات . وكما لا يقال إن بين الأكل والمأكول مودة ، كذلك لا ينبغى أن يقال إن بين المحبين مودة . إنما تكون العلاقة بينهما قائمة على الرغبة فى الالتهام أو الاستحواذ إطاعة للغريزة لا عن مودة . والحبيبان أشبه بالمتقاتلين المتبارزين منهما بالصديقين المتوادين ، لأن مطلب كل منهما الاستيلاء والغلبة ؛ وهما لا يستعملان سلاحا ولا يحدثان جراحا ، ولكن الواقع أن القبل والعناق والضم وغير هذا وذاك مما يكون بين المحبين - كل ذلك ليس إلا وسائل للتليين بغية التغلب . وقد استعمل الشعراء ألفاظا كثيرة كانوا فيها صادقين من حيث لا يشعرون ، فذكروا فى مواقف الحب وحالاته المختلفة المتعددة السيف والجراح والأكباد القريحة والقلوب المفجوعة والنفوس الكليمة والسهام وما إلى ذلك ، فأشاروا إلى حقيقة العلاقة بين الحبيبين من حيث يحسون بها بالفطرة ولا يدركونها بالعقل . والحقيقة هى أن الحب حرب وقتال وفتك ، وغايته - وهى النسل - تنطوى على تعرض للتضحية الكبرى - على الأقل من جانب المرأة - وسبيله الاخضاع ، فالمرأة تحاول إخضاع الرجل ليتسنى لها بذلك أن تجيء بالنسل الذى جعلتها الطبيعة أداة له . والرجل يحاول إخضاع المرأة ليتسنى له أن يجعلها تجيئه بالنسل الذى يطلبه بغريزته . والحال بينهما دائر أبدا على الكفاح . وفى كل شعر صادق - قديم أو حديث - لمحات عديدة تدل على التفطن إلى هذه الحقيقة ولو من غير إدراك تام صحيح جلى لها

والحب يتخذ الصورة التى يؤدى إليها التفاعل بين عاملين : الأول هو الدافع الغريزى للانسان ، والثانى هو مقاومة الجماعة ، وهي مقاومة مرجعها إلى العرف والدين وما يجرى هذا المجرى . وإلى تفاعل هذين العاملين وما ينتجانه فيما بينهما من الأثر ترجع الصور الشائعة للحب بين الجماعة . وقد كان التحرج شديدا فى الجيل الماضى من ذكر الحب والاعتراف أو المجاهرة به ، لأن التقاليد كانت صارمة وكان لها معين من الدين لا يستهان به ، وكانت الجماعة تنزع إلى الاحتشام . وكانت قاعدة الحياة من هذه الناحية المثل المشهور « إذا بليتم فاستتروا » ، فكانت معاقرة الخمر على قارعة الطريق ممنوعة لا بحكم القانون بل بقضاء العرف ، وكان الشبان مثلا يستحيون أن يجلسوا فى القهوات ، وكان النساء يتحجبن ويحرصن على ستر زينتهن ، ولم يكن اتصال شاب بفتاة من الهيئات ، ثم جاءت الحرب فرجت الدنيا وزلزلت قواعد الحياة فيها وانتشر التعليم وشاع الاطلاع على الآراء الحديثة فى الأمور الجنسية ، وهدمت الهبة القومية المصرية حواجز كثيرة وفى جملتها ما كان يفصل الجنسين ويفرق بينهما ، وصار الناس - شيئا فشيئا - يلهجون بذكر الحب ويتناولونه فى مجالسهم وفى كتاباتهم تناولا هو أقرب ما يكون إلى البحث العلمى ، ولم يعد الشبان - بسبب نشأتهم والجو الجديد المحيط بهم ينظرون إلى الحب وما يتعلق به كما كان آباؤهم يفعلون أو يرون فى الأمر موجبا للحماسة أو داعيا للخجل أو باعثا على الاستحياء ؛ وجاء التطور الاجتماعى ولا سيما فيما يتعلق بإمكان ضبط النسل هادما الحاجز منيع بين الرجل والمرأة . وفى الأمثال إن الشجرة تعرف من ثمارها ؛ فإذا لم تكن ثم ثمرة فأين الشجرة ؟ وضعف العرف وتفككت قيوده وحصل التمرد عليه فى سبيل الحرية كما حصل التمرد على كل قيد آخر . ومن أخطار الحرية فى بادىء الأمر أن الناس يطلبون الحقوق وينسون الواجبات التى تقابل الحقوق . والتوازن لا يعود إلا ببطء وبعد التجارب الطويلة والمعاناة المرة والدروس العملية الأليمة . وبذلك فقد الحب الهالة التى كانت حوله وسلب القداسة القديمة ، وصار على الأيام أمرا عاديا ، وهوى إلى مرتبة الرقص والألعاب الرياضية ، لأن وطأة العرف والتقاليد ضعفت وخفت جدا حتى ليمكن أن يقال إنها غير محسوسة فى الأغلب والأعم . وفى مثل هذه الأحوال التى يعظم فيها الترخص والتسامح يندر الحب القوى العميق الطويل العمر ، وقد يكون هذا الحال هو بعض السر فى ركود الشعر إلى حد كبير فى هذه الفترة من حياتنا الأدبية

ابراهيم عبد القادر المازنى